الفصل السابع :

قيل له : إن كانت الأرواح حادثة مع الأجساد ، فما معنى قوله – عليه السلام – : « **خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفى عام** » . وقوله – عليه السلام – : « **أنا أول الأنبياء خلقا ، وآخرهم بعثا ، وكنت نبيا وآدم بين الماء والطين** »(١٣) ؟

فقال : شيء من هذا لايدل على قدم الروح بل يدل على حدوثه وكونه مخلوقاً . نعم ربما دل بظاهره على تقدم وجوده على الجسد وأمر الظواهر هين . فإن تأويلها ممكن ، والبرهان القاطع لا يدرأ بالظواهر بل يسلط على تأويل الظواهر ، كما فى ظواهر التشبيه ، فى حق الله تعالى .

---

(١٣) كتب السيرة والسنة تروى كثيراً من الآثار ، تشير إلى تشريف الله – تعالى – باصطفاء محمد – صلى الله عليه وسلم – وكونه أول الأنبياء خلقا . فقد روى ابن إسحاق عن قتادة مرسلاً . قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: « **كنت أول الناس فى الخلق وآخرهم فى البعث** » (ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ١ ص ١٤٩ ط صادر بيروت .) .

وقد يكون المراد بالخلق هنا التقدير دون الإيجاد ، فإنه قبل أن ولدته أمه لم يكن موجودا ، ولكن الغايات والكمالات سابقة فى التقدير ، لاحقة فى الوجود » انظر الصالحى الشامى : سبل الهدى والرشاد جـ١ ص ٩١ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

أما قوله : « **خلق الله الأرواح قبل الأجساد** » : أراد بالأرواح : أرواح الملائكة ، والأجساد : أجساد العالم من العرش ، والكرسى ، والسموات ، والكواكب ، والنار ، والهواء ، والماء ، والأرض . ولما كانت أجساد الآدميين بجملتهم صغيرة ، بالإضافة إلى جرم الأرض . وجرم الأرض أصغر من الشمس بكثير ، ثم لانسبة لجرم الشمس إلى فلكه ،

= وجاء عن العرباض بن سارية – رضى الله عنه – عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « **إنى عند الله فى أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته** » رواه الإمام أحمد فى مسنده جـ٤ ص ١٢٧ . ورواه الحاكم فى المستدرك جـ٢ ص ٦٠٠ . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير جـ ١١ ص ٢٥٢ ورواه الهيثمى جـ٣ ص ١١٢ . ويقول الطيبى : والمعنى : كتبت خاتم الأنبياء فى الحال الذى آدم مطروح على الأرض ، حاصل فى أثناء تخلقه ، لما يفرغ من تصويره ، وإجراء الروح » الصالحى الشامى : سبل الهدى والرشاد جـ١ ص ٩٦ .

ويقول الحافظ أبو الفرج بن رجب – رحمه الله تعالى – : المقصود من هذا الحديث : أن نبوة النبى – صلى الله عليه وسلم – كانت مذكورة معروفة من قبل أن يخلقه الله – تعالى – ويخرجه إلى دار الدنيا حيا ، وأن ذلك كان مكتوبا فى أم الكتاب من قبل نفخ الروح فى آدم – صلى الله عليهما وسلم – . (انظر الصالحى الشامى : سبل الهدى والرشاد جـ١ ص ٩٧) .

وفسر أم الكتاب باللوح المحفوظ فى قوله – تعالى –: ﴿ **يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ سورة الرعد ، الآية رقم : ٣٩ .

ولا ريب أن علم الله قديم ، لم يزل عالما بما يحدثه من خلقه ثم إن الله – تعالى – كتب ذلك فى كتاب عنده . قبل أن يخلق السموات والأرض كما قال – تعالى – : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾ . سورة الحديد ، الآية رقم : ٢٢ .

ويروى الإمام أحمد عن ميسرة – رضى الله عنه – قال : قلت : يارسول الله : متى كنت نبياً ؟ قال : « **وآدم بين الروح والجسد** » رواه أحمد والترمذى جـ٢ ص ٤٢٥ .

ولا لفلكه إلى السموات التى فوقه . ثم كل ذلك اتسع له الكرسى ؛ إذ وسع كرسيه السموات والأرض[١٤] . والكرسى صغير بالإضافة إلى العرش . فإذا تفكرت فى جميع ذلك استحقرت أجساد الآدميين . ولم تفهمها من مطلق لفظ الأجساد . فكذلك يعلم ويتحقق أن الأرواح البشرية بالإضافة إلى أرواح الملائكة كأجسادهم بالإضافة إلى أجساد العالم .

ويقول الإمام أحمد فى رواية منها : وبعضهم يروون : « متى كتبت » من الكتابة ، قال : « **كتبت نبيا وآدم بين الروح والجسد** » . فتحمل هذه الرواية مع حديث العرباض السابق على وجوب نبوته – صلى الله عليه وسلم – وثبوتها وظهورها فى الخارج . فإن الكتابة إنما تستعمل فيما هو واجب ، إما تشريعا كقوله – تعالى – : ﴿ **كتب عليكم الصيام** ﴾ البقرة ، الآية رقم : ١٨٣ . أو قدرا كقوله – تعالى – : ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى** ﴾ سورة المجادلة ، الآية رقم : ٢١ .

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قالوا : يارسول الله : متى وجبت لك النبوة ؟ قال : « **وآدم بين الروح والجسد** » الترمذى والحاكم والطبرانى والبيهقى .

وروى ابن سعد عن الشعبى قال : قال رجل : يارسول الله ؛ متى استنبئت ؟ قال : « **وآدم بين الروح والجسد ، حين أخذ منى الميثاق** » . **رواه الدارمى فى سننه : المقدمة ص ٣** .

(١٤) يشير بهذا إلى قوله – تعالى – فى سورة البقرة . ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له مافى السموات ومافى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموٰات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم** ﴾ .

ولو انفتح لك باب معرفة الأرواح الملكية لرأيت الأرواح البشرية كسراج اقتبست من نار عظيمة ، طبق العالم . وتلك النار العظيمة هى الروح الأخير من أرواح الملائكة .

ولأرواح الملائكة ترتيب وكل واحد منفرد برتبته ، ولا يجتمع فى مرتبة واحدة اثنان ، بخلاف الأرواح البشرية المتكثرة مع اتحاد النوع والمرتبة .

أما الملائكة : فكل واحد نوع بذاته . وهو كل ذلك النوع وإليه الإشارة بقوله – تعالى – : ﴿**وإنّا لَصَـٰدِقُونَ**﴾[15] وبقوله – عليه السلام – : « **إن الراكع منهم لايسجد ، والقائم لايركع ، وإنه مامن واحد إلا وله مقام معلوم** » . فلا تفهمن إذاً من الأرواح والأجساد المطلقة إلا أرواح الملائكة ، وأجساد العالم .

وأما قوله – عليه السلام – : « **أنا أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثا** »[16] فالخلق ههنا هو التقدير دون الإيجاد ؛ فإنه

---

(١٥) سورة يوسف ، الآية رقم : ٨٢ .

وسورة النمل : الآية رقم : ٤٩ .

(١٦) انظر ماسبق من بيان اصطفاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – وما ورد فى ذلك .

قبل أن ولدته أمه لم يكن موجوداً مخلوقاً ، ولكن الغايات والكمالات سابقة فى التقدير لاحقة فى الوجود . وهو معنى قولهم : أول الفكر آخر العمل(١٧) .

بيانه : أن المهندس المقدر للدار ، أول مايتمثل صورته فى تقديره وهى دار كاملة ، وآخر ما يوجد من إثراء أعماله هى الدار الكاملة ، والدار الكاملة أول الأشياء فى حقه تقديراً ، وآخره وجوداً ؛ لأن ماقبله من ضرب النبات ، وبناء الحيطان ، وتركيب الجذوع ، وسيلة إلى غاية وكمال ، وهى الدار . فالغاية هى الدار . ولأجله تقدم الآلات والأعمال .

فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن مقصود فطرة الآدميين : إدراكهم لسعادة القرب من الحضرة الإلهية . ولم يكن ذلك إلا بتعريف الأنبياء ، فكانت النبوة مقصودة بالإيجاد ، والمقصود كمالها وغايتها ، لا أولها . وإنما تكمل بحسب سنة الله – تعالى – بالتدريج ، كما تكمل عمارة الدار بالتدريج . فتمهد أصل النبوة بآدم – عليه السلام – ولم يزل ينمو ويكمل ، حتى بلغ الكمال بمحمد ﷺ.

وكان المقصود كمال النبوة وغايتها ، وتمهيد أوائلها وسيلة إليها ، كتأسيس البناء ، وتمهيد أصول الحيطان ، فإنه وسيلة

(١٧) انظر الصالحى الشامى : **سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد** جـ١ ص ٩١ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

إلى كمال صورة الدار . ولهذا السر كان خاتم النبيين . فإن الزيادة على الكمال نقصان .

وأكمل شكل الآلات الباطشة كف عليه خمسة أصابع ، فكما أن ذا الأصابع الأربعة ناقص ، فذو الأصابع الستة ناقص . لأن السادسة زيادة على الكفاية ، فهو نقصان بالحقيقة . وإن كان زيادة فى الصورة ، وإليه الإشارة بقوله – عليه السلام – : « **مثل النبوة مثل دار معمورة لم يبق فيها إلا موضع لبنة . كنت أنا تلك اللبنة** »[١٨] أو لفظ هذا معناه .

فإذا عرفت أن كونه خاتم النبيين ضرورة لا يتصور خلافه ، إذ بلغ به الغاية والكمال . والغاية : أول فى التقدير ، آخر فى الوجود .

وأما قوله – عليه السلام – : « **كنت نبيا وآدم بين الماء والطين** »[١٩] أيضاً إشارة إلى ماذكرناه ، وأنه كان نبيا فى التقدير قبل تمام خلقة آدم ؛ لأنه لم ينشأ خلق آدم إلا لينتزع

---

(١٨) يشير بهذا إلى ما رواه البخارى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « **إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى . كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية . فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟! فأنا هذه اللبنة ، وأنا خاتم النبيين** » . ابن حجر : فتح البارى جـ ٧ ص ٣٧٠ .

(١٩) راجع ماسبق من أحاديث فى اصطفاء النبى – صلى الله عليه وسلم –.

الصافى من ذريته ، ولا يزال يستصفى تدريجاً إلى أن يبلغ كمال الصفاء ، فيقبل الروح القدسى المحمدى . ولاتفهم هذه الحقيقة إلا بأن تعلم أن للدار – مثلا – وجودين : – وجود فى ذهن المهندس ودماغه ، حتى كأنه ينظر إلى صورة الدار ، – ووجود خارج الذهن فى الأعيان .

والوجود الذهنى سبب الوجود الخارج العينى ، فهو سابق لا محالة ، فكذلك تعلم أن الله – تعالى – يُقَدِّرُ أولاً ، ثم يوجد على وفق التقدير ثانياً .

وإنما التقدير يرتسم فى اللوح المحفوظ ، كما يرتسم تقدير المهندس أولاً فى لوح أو قرطاس ، فتصير الدار موجودة بكمال صورتها نوعاً من الوجود يكون هو سبباً للوجود الحقيقى . وكما أن هذه الصورة ترتسم فى لوح المهندس بواسطة القلم ، والقلم يجرى على وَفْقِ العلم ، بل العلم مجراه . فكذلك تقدير صورة الأمور الإلٰهية ترتسم أولا فى اللوح المحفوظ . وإنما ينتقش اللوح من القلم ، والقلم يجرى على وفق العلم ، واللوح عبارة عن موجود قابل النقش .

الصور والقلم عبارة عن موجود منه تفيض الصور على اللوح المنتقش ؛ فإن حد القلم هو الناقش لصور المعلومات ، وحد اللوح هو المنتقش بتلك الصور . وليس من شرطهما أن يكونا قصبا أو خشبا بل ليس من شرطهما أن يكونا جسمين .

فالجسمية لا تدخل فى حد القلم وحقيقته ، بل روح القلمية واللوحية – ماذكرناه – والزايد عليه صورته لا معناه . فلا يبعد أن يكون قلم الله تعالى ، ولوحه ، لائقين بأصبعه ويده ، وكل ذلك على مايليق بذاته وإلٰهيته ، فيتقدس عن حقيقة الجسمية ، بل جملتها جواهر روحانية عالمة . بعضها متعلم كاللوح ، وبعضها معلم كالقلم . فإن الله – تعالى – عَلَّمَ بالقلم . فإذا فهمت نوعى الوجود . فقد كان نبيا قبل آدم ، بمعنى الوجود الأول التقديرى دون الوجود الثانى الحسى العينى .

والله أعـلم بالصـواب